تاريخ الارسال:. 2017/09/21 تاريخ النشر :جوان 2018

التنبؤ والنبوءة في العلوم الاجتماعية
ترجمة مقال كارل بوبر: "التنبؤ والنبوءة في العلوم الاجتماعية" من كتاب "حدوس وتفنيدات".

أ .بن سليمان جمال الدين
جامعة بسكرة

ملخص

يعد كارل بوبر (1902-1994) من أهم فلاسفة العلم خلال القرنين الأخيرين، واشتهر أكثر بفلسفته في العلوم الطبيعية لاسيما عقلانيته النقدية وابستيمولوجيا التكذيب عنده التي ترك بها بصمة في تاريخ فلسفة العلوم، وكذا في تاريخ العلم والممارسة العلمية لدى الكثير من العلماء والفلاسفة .أما فلسفته في العلوم الاجتماعية فلم تحظ أكاديميا بالانتشار الكافي المتوقع مقارنة بذيوع صيته إلا مؤخرا، لكن خارج الحدود الأكاديمية لقيت حظا وافرا من الإقبال والمناقشة ربما لأنها أكثر واقعية وعملية .وفي هذا المقال الذي يصب ضمن ابستيمولوجيا العلوم الاجتماعية وكان بعنوان" التنبؤ والنبوءة في العلوم الاجتماعية "حيث جاء ضمن كتاب "حدوس وتفنيدات "والذي هو مجموعة من المقالات والمحاضرات المهمة لبوبر، نشر سنة1963 ، وقد عبّر عن حصيلة خمسة عشر سنة من الجهد، وهو من الأعمال البوبرية الأكثر شعبية وشيوعا، ليس فقط من أجل الأفكار والآراء الدقيقة التي احتواها حول الطريقة التي تنمو المعرفة العلمية وإجراءات المنهج العلمي وفلسفته العقلانية، ولكن أيضا لتطبيق تلك الأفكار في السياسة والمجتمع، فهو يوفر مدخلا موضحا للأسس الابستيمولوجية التي وجهت عمل بوبر، فليس فقط معارفنا، ولكن أهدافنا ومعاييرنا في الحكم، تنمو من خلال عملية لا نهائية من المحاولة والخطأ .ويتحدث بوبر في هذا المقال منهج في العلوم الاجتماعية يجعل من مهمة هذه الأخيرة هو تقديم نبوءات تاريخية historical prophecies ويسمي هذا المذهب بالتاريخانيةHistoricism ، التي يعتبرها مخلفات وبقايا لخرافة قديمة، حيث يمكن أن يُعتبر تحليله لدور التنبؤ والنبوءة انتقادا للمنهج التاريخي للماركسية، دون الاقتصار على الأشكال الاقتصادية المختلفة للتاريخانية التي تعرف بالماركسية، ولكن يستهدف المذهب التّاريخاني Historicism عموما، وعددا من فلسفات التاريخ أيضا؛ التي تنطوي منهج تاريخي معين طالما يُعتقد أنه منهج صحيح من طرف العديد من الفلاسفة، القدماء، قديما وحديثا، والذين كانت رؤاهم السياسية مختلفة جدا عن رؤى ماركس .

الكلمات المفتاحية كارل بوبر، فلسفة العلوم الاجتماعية، التنبؤ، التفسير

Abstract

Karl Popper (1902-1994) is one of the most important philosophers of science during the last two centuries. He is best known for his philosophy of natural sciences, especially his critical rationalism and his falsification epistemology. which by he has left a mark on the history of philosophy of science as well in the history of science and scientific practice. He influenced many scientists and philosophers. His philosophy of social sciences has not received enough from academics compared to his reputation recently, but beyond the academic frontiers he have been much fortunate to be attractive and more discussion to his works, perhaps because it is more realistic and practical. In his article, "Prediction and Prophecy in the Social Sciences," in his book "Conjectures and Refutations", which is a collection of important articles and lectures for Popper, published in 1963. The book considered as the outcome of fifteen years of effort, it is one of the most popular popperian works, not only for its ideas and the acute insights it contains about the way scientific knowledge grows, the procedures of the scientific method and its critical rationalism philosophy, but also for the application of those ideas in politics and society. It provides an introduction to the epistemological foundations that guided Popper's work, not only

our knowledge, but our goals and standards, grows through an endless process of trial and error. In this article, Popper discusses the methodology of social sciences, that its task is to propound historical prophecies. Which in the popperian parlance is called "Historicism", which he regards as the remains and residues of an old superstition. His analysis of the role of prediction and prophecy can be regarded as criticism of the historical method of Marxism, without confining it to that economic variant of historicism which is known as Marxism, it aims at criticizing the historicist doctrine in general, as well a number of philosophies of history; a certain historical method which has been believed to be valid by many philosophers, ancient and modern, whose political views were very different from those of Marx.
Karl Popper, "Prediction and Prophecy in the Social Sciences", Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge, fifth edition (revised), pp.336-346. Routledge, London.2000.

موضوع محاضرتي هو " التنبؤ والنبوءة في العلوم الاجتماعية ." ونيتي هنا أن أنتقد المذهب الذي يرى أن من مهمة العلوم الاجتماعية تقديم نبوءات تاريخية، وأننا بحاجة إلى هذه النبوءات التاريخية إذا أردنا إقامة السياسة بطريقة عقلية .وسأسمي) سأدعو (هذا المذهب " التاريخانية " وأنا أعتبر التاريخانية بكونها المخلفات والبقايا (relic) لخرافة قديمة، على الرغم من أن أولئك الذين يعتقدون بها هم بالعادة مقتنعون أنها نظرية جديدة جدا وتقدمية وثورية وعلمية.

إن عقائد (tenets) التاريخانية – التي هي أن مهمة العلوم الاجتماعية بأن تقترح نبوءات تاريخية، وأن هذه النبوءات التاريخية حاجة ومطلب أي نظرية عقلانية – هي موضوعات اليوم لأنها تشكل جزءا مهما من تلك الفلسفة التي تودّ أن تُسمِّي نفسها باسم" الاشتراكية العلمية "أو" الماركسية ."وتحليلي لدور التنبؤ والنبوءة يمكن أن يُعتبر انتقادا للمنهج التاريخي للماركسية .ولكن في الحقيقة هو ليس مقتصرا على الأشكال الاقتصادية المختلفة للتاريخانية التي تعرف بالماركسية، ولكن يهدف إلى انتقاد المذهب التّاريخاني عموما .إلا أني عوّلت أن أتكلم وكأن الماركسية هي موضوعي الوحيد أو الرئيسي للهجوم، حيث ابتغي تجنب الاتهام بأني أهاجم الماركسية خفية تحت اسم" التاريخانية ."وسأكون مغتبطا إذا تذكرتم أني كلما ذكرت الماركسية، فإني دائما أقصد عددا من فلسفات التاريخ أيضا؛ لأني بصدد محاولة انتقاد منهج تاريخي معين التي طالما يُعتقد أنه منهج صحيح من طرف العديد من الفلاسفة، القدماء، قديما وحديثا، والذين كانت رؤاهم السياسية مختلفة جدا عن رؤى ماركس.

كناقد للماركسية، سأحاول التعبير عن مهمتي و انجازها بروح ليبرالية .وسوف لن أتردد، ليس فقط في انتقاد الماركسية ولكن أيضا في الدفاع عن بعض دعاواها) اعتقاداتها .(وأن اعمل على تبسيط مذاهبها بشكل أساسي.(radically)

من النقاط التي أشعر بالتعاطف مع الماركسية حولها هي إلحاحهم على أن المشكلات الاجتماعية لعصرنا عاجلة ومُلحّة، وينبغي على المفكرين مواجهة هذه القضايا؛ ولا أن نكتفي فقط بتفسير العالم بل أن نساهم في التغيير .واتفق أشعر بالتعاطف كثيرا مع هذا الموقف، كما أن اختيار الجمهور الحضور لموضوع" الإنسان والمجتمع "Man and Society" "يدلّ على أن الحاجة إلى مناقشة هذه المشاكل معترف بها على نطاق واسع .وأن الخطر القاتل الذي تخبطت فيه البشرية – بدون شك أكبر خطر في تاريخها – لا يجب تجاهله من طرف الفلاسفة.

ولكن أي نوع من المساهمة يمكن أن يقدمه الفلاسفة – ليس فقط كأفراد، أو مواطنون، ولكن كفلاسفة؟ بعض المركسيين يصر على أن المسألة عاجلة وملحة جدا للمزيد من للتأمل، وعلينا أن نتخذ موقفا بأسرع ما يمكن .لكن إذا كنا فلاسفة فسنقدم أي مساهمة حينئذ، وبالتأكيد، يجب أن نرفض الانتقال بشكل أعمى إلى الحلول الجاهزة) يجب أن نرفض أن نُقحَم عميا لقبول حلول جاهزة(، ولأن الحالة الراهنة استعجالية جدا، وكوننا فلاسفة فلا يمكن فعل شيء أكثر من استجلاب عقلانية نقدية للتأثير

على المشكلات التي تواجهنا، وعلى الحلول التي ينادي بها مختلف الأطراف .لأن تكون مميزا، فإني أعتقد أن أفضل ما أستطيع فعله كفيلسوف هو الاقتراب من المشكلات مسلح بسلاح مناهج النقد) الانتقاد .(وهذا ما أقترح أن يحصل.

ربما، على سبيل التقديم سأقول لم قد اخترت هذا الموضوع بالذات .أنا عقلاني، وبهذا اعني أني أعتقد بالمناقشة) الحوار (والحجة . كما أعتقد أيضا بالإمكانية والرغبة في تطبيق العلم على مستوى المشكلات الظاهرة في الحقل الاجتماعي .ولكن أعتقد انه خلال الممارسة للعلم الاجتماعي، أني استطيع فقط النظر بانتباه شديد في العلم الاجتماعي الزائف.

كثير من زملائي العقلانيون هم ماركسيون، في انجلترا، مثلا، عدد معتبر من الفيزيائيين والبيولوجيين الممتازين يؤكدون ولاءهم للمذهب الماركسي .وهم مفتونون بالماركسية من خلال مزاعمها) تصريحاتها) :(أ (بأنها علم،) ب (وبأنها تقدمية) ج (كما أنها تتبنّى مناهج التنبؤ التي تمارسها العلوم الطبيعية .وطبها الكل يقوم على هذا التصريح الثالث .ولذلك سأحاول أن أظهر أن هذه الدعوي غير مبررة، وبأن نوع النبوءات الذي تقدمه الماركسية هو في خصائصه المنطقية أقرب مجانَسة لخصائص العهد القديم أكثر منها لخصائص الفيزياء الحديثة.

سأبدأ بقضية) عبارة (مختصرة مع انتقاد للمنهج التاريخي لعلم الماركسية المزعوم .يتوجب على أن ابسط هاته القضايا ما استطعت؛ وهو أمر محتم .لكن هذه التبسيطات قد تخدم الهدف المتمثل في استجلاب النقاط الحاسمة إلى مساحة التركيز.

النقاط المحورية للمنهج التاريخي، وبشكل أكثر خصوصا للماركسية، تبدو كالتالي :

- هي حقيقة أننا نستطيع التنبؤ بدورة خسوف الشمسية بدرجة عالية من الدقة، ولفترة طويلة قبل الحدوث .لم لا نستطيع التنبؤ بالثورات؟ هل عرف عالم اجتماعي سنة 1780 حول المجتمع نصف ما كان يعرفه الفلكيون البابليون القدماء حول الفلك، فسيكون قادرا حينئذ على أن يتنبأ بالثورة الفرنسية.

والفكرة الأساسية بأنه يجب أن يكون ممكنا التنبؤ بالثورات تماما مثلما هو ممكن أن نتنبأ بخسوف الشمس تضفي إلى القول بالآراء التالية حول مهمة العلوم الاجتماعية:

- إن مهمة العلوم الاجتماعية هي بالأساس نفسها بالنسبة للعلوم الطبيعة – لإجراء تنبؤات، والأكثر على وجه الخصوص، التنبؤات التاريخية، أي تنبؤات حول التطور الاجتماعي والسياسي للبشرية.
- بمجرد أن تجرى هذه التنبؤات، فيمكن أن تحدد مهمة العلوم السياسية .والتي هي التخفيف من آلام المخاض) كما يسميها ماركس (المتعلقة بشكل حتمي بالتطورات السياسية التي تم التنبؤ أنها وشك الحدوث.

هذه الأفكار البسيطة، ولاسيما تلك التي تقول بأن مهمة العلوم الاجتماعية هي تقديم توقعات) تنبؤات (تاريخية، مثل التنبؤ بالثورات الاجتماعية، سأدعوها بالمذهب التاريخاني في العلوم الاجتماعية .والفكرة بأن مهمة العلوم السياسية أن تخفف من آلام المخاض للتطورات السياسية الوشيكة سأدعوها المذهب التاريخاني في العلوم السياسية .كلا هذين المذهبين يمكن اعتباره جزءا من مخطط) مؤامرة (فلسفي أوسع الذي قد يُسمى التاريخانية – الرأي القائل بأن قصة البشرية لها حبكة ما، وإذا ما نجحنا في كشف هاته الحبكة، فسيكون لدينا المفتاح للمستقبل .

قد أجملت باختصار مذهبين للتّاريخانيين معنيين بمهمة العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية .وقد وصفت هذين المذهبين بالماركسيين .ولكنهما ليسا خاصين بالماركسية .على العكس، فهما من بين أقدم المذاهب في العالم .في فترة ماركس تم تبنيهما بالصورة التي وصفتهما بالضبط، وليس فقط من طرف ماركس الذي ورثهما على هيغل، ولكن – أيضا – من طرف جون ستوارت ميل الذي ورثهما من كونت .Comte وقد تم تبني هذه المذاهب التاريخانية في الأزمنة القديمة من طرف أفلاطون، وقبله

هيراقليطس و هيسيود .فهي تبدو من أصل شرقي؛ في الحقيقة، الفكرة اليهودية بالنسبة الشعب المختار هي فكرة تاريخانية نموذجية) أحسن مثال – .(التاريخ ذو حبكة والتي كتبها) Jahweh اسم الإله مشتق من العبرية(، وتلك هي الحبكة التي يمكن أن تكشف جزئيا من طرف الأنبياء .هذه الأفكار توضح أحد أقدم أحلام البشرية – حلم النبوءة، فكرة أنه يمكننا معرفة ما في يدخر المستقبل لنا، ومنه يمكن الاستفادة من هذه المعرفة بتعديل سياستنا حسبها.

لاقت هذه الفكرة القديمة بحقيقة أن نبوءات دورات الخسوف وتحركات الكواكب كانت ناجحة .والعلاقة الوثيقة بين مذهب التّاريخانيين والمعرفة الفلكية تظهر في أفكار وممارسات التنجيم.

هذه النقاط التاريخية ليس لها، بطبيعة الحال، تأثير على مسألة ما إذا كان أو لم يكن مذهب التاريخانيين المتعلق بمهمة العلوم الاجتماعية يمكن الدفاع عنه .فهذا السؤال ينطوي تحت منهجية العلوم الاجتماعية.

مذهب التاريخانيين القائل أن مهمة العلوم الاجتماعية هي التنبؤ بالتطور التاريخي، أعتقد أنه غير مبرر ولا يمكن الدفاع عنه.

حقا أن كل العلوم النظرية هي علوم تنبئية .وكما هو معروف أيضا أن هناك من العلوم الاجتماعية ما هو نظري .لكن الإقرار بهذا يتضمن – كما يعتقد التاريخانيون – أن مهمة العلوم الاجتماعية هي النبوءة التاريخية؟ إنها تبدو كذلك :لكن هذا الانطباع سيختفي بمجرد أن نقوم بتمييز واضح بين ما سأدعوه" التنبؤ العلمي "من جهة و" النبوءات التاريخية غير المشروطة "من جهة أخرى .وقد فشلت التاريخانية في إقامة هذا التمييز المهم.

التنبؤات العلمية العادية) المألوفة (خاضعة لشروط، فهي تؤكد أن هناك تغيرات معينة) ولنقل، درجة حرارة الماء في غلاية (سترافقها تغيرات أخرى) ولنقل، غليان الماء .(أو فلنأخذ مثالا بسيطا من علم اجتماعي :تماما مثل أننا نستطيع التعلم من فيزيائي أنه تحت ظروف فيزيائية معينة ستنفجر الغلاية) المرجل(، فنستطيع كذلك أن نتعلم من الاقتصادي أنه تحت ظروف اقتصادية معينة، مثل العجز في السلعة) نقص العرض(، مراقبة الأسعار، ولنقل أيضا عدم وجود نظام عقابي فعال، فإن ذلك سيؤدي إلى ظهور ونمو السوق السوداء.

إن التنبؤات العلمية غير المشروطة يمكن أحيانا أن تُشتق من هذه التنبؤات العلمية المشروطة، مع التقريرات) الشواهد (التاريخية التي تؤكد أن شروط السؤال قد تحققت) .من هاته المقدمات يمكن أن نحصل على التنبؤات غير المشروطة عن طريق القياس (.modus ponensإذا شخص طبيب الحمى القرمزية فربما بعدئذ، بالاستعانة بالتنبؤات المشروطة في علمه، يقوم بتنبؤات غير مشروطة بأن مريضه سيعاني من طفح من نوع ما .لكن يمكن طبعا اقامة مثل تلك التنبؤات غير المشروطة بدون أي تبرير في علم نظري، أو – بصيغة أخرى – في التنبؤات العلمية المشروطة .قد تكون قائمة على سبيل المثال على حلم – وبصدفة ما هي فعلا قد تتحقق.

ولدي اعتراضان:

الأول هو أن التاريخاني في واقع الأمر لا يشتق نبوءاته التاريخية من تنبؤات علمية مشروطة .والثاني) الذي منه يتبع التالي (هو أنه– التاريخاني – لا يمكنه أن يفعل ذلك لأن النبوءات طويلة المدى يمكن أن تشتق من التنبؤات العلمية المشروطة فقط إذا كانت ستجرى) تطبق (في أنظمة يمكن وصفها بالمعزولة جدا وثابتة – أي مستقرة – ومتكررة .وهذه الأنظمة نادرة جدا في الطبيعة؛ والمجتمع الحديث هو بالتأكيد ليس واحدا منها .

اسمحوا لي أن أطور هذه النقطة أكثر من ذلك .إن نبوءات الخسوف والكسوف، بل والنبوءات المستندة على انتظام موسمي أو دوري) ربما هي أقدم قوانين الطبيعة التي فهمها الإنسان بوعي (فهي ممكنة فقط لأن نظامنا الشمسي نظام مستقر وتكراري؛

ولأنه معزول عن تأثير الأنظمة الميكانيكية الأخرى والمساحات الهائلة من الفضاء الفارغ ولذلك هي نسبيا بعيدة من التدخلات من الخارج .على عكس الاعتقادات الشعبية إن تحليل مثل هذه الأنظمة التكرارية ليس نموذجيا في العلوم الطبيعية .فهذه الأنظمة التكرارية هي حالات خاصة حيث يصبح التنبؤ العلمي رائعا بشكل خاص، لكن هناك ينتهي كل شيء .وبعيدا عن هذه الحالات الخاصة جدا – النظام الشمسي – فإن الأنظمة التكرارية أو الدورية معروفة ولاسيما في مجال البيولوجيا .إن دورة حياة العضويات هي جزء من سلسلة من الأحداث البيولوجية نصف المستقرة أو المتغيرة ببطء شديد .التنبؤات العلمية حول دورات حياة العضويات يمكن أن تقوم) تجرى (كلما جردناها من التغيرات التطورية البطيئة، أي بقدر ما تعاملنا مع النظام البيولوجي بكونه مسألة مستقرة) على وتيرة معينة.(

لذلك ليس هناك قاعدة يمكن أن توجد في أمثلة كهذه، لأجل الخلاف بأنه يمكن تطبيق منهج النبوءات طويلة المدى غير المشروطة في التاريخ الإنساني .المجتمع يتغير ويتطور .وهذا التطور أساسا ليس بتكراري .صحيح انه بقدر ما هي تكرارية، يمكن ربما تقديم بعض النبوءات .مثلا، هناك بدون شك نوع من التكرارية في الطريقة التي تنشأ بها ديانات جديدة، أو أنظمة الطغيان الجديدة، ودارس التاريخ قد يجد انه يمكن توقُّع مثل هذه التطورات بدرجة محدودة بواسطة مقارنتها بالمواقف السابقة، أي بدراسة الظروف التي نشأت تحتها .لكن تطبيق منهج التنبؤ المشروط هذا لن يأخذنا بعيدا جدا .إن أغلب جوانب التطور التاريخي البارزة غير تكرارية .الظروف تتغير، والأحوال تتبدل وتظهر) مثلا كنتيجة للاكتشافات العلمية الجديدة (والتي تختلف تماما عن أي شيء قد حدث قبل ذلك .وحقيقة أننا نستطيع التنبؤ بالدورات الكسوف، لذلك، لا تمدنا بسبب صحيح صالح لنتوقع أنه يمكننا أن نتنبأ بالثورات .

هذه الاعتبارات لا تتضمن) تقتضي (فقط تطور الإنسان، ولكن أيضا تطور الحياة بشكل عام .لا يوجد قانون للتطور، فقط الحقيقة التاريخية بأن النبات والحيوان يتغير، أو بدقة أكثر، أنه قد تغيَّر .إن فكرة القانون الذي يحدد اتجاه وخاصية التطور هو خطأ مثالي في القرن التاسع عشر، نشأ عن الجنوح العام لينسب إلى" القانون الطبيعي "الوظائف المنسوبة تقليديا إلى الإله .

إن إدراك أن العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تمارس نبوءة لمستقبل التطورات التاريخية أدى ببعض الكتاب الحديثون لليأس من العقل، وموالاة اللاعقلانية السياسية .محددين القوة التنبئية بالفائدة العملية، وصرحوا بأن العلوم الاجتماعية بدون جدوى أو فائدة .في محاولة لتحليلي إمكانية التنبؤ بالتطورات التاريخية أحد هؤلاء اللاعقلانيون المحدثون يكتب " :نفس عامل اللايقينية الذي تعاني منه العلوم الطبيعية يؤثر على العلوم الاجتماعية، ولكن فقط بدرجة أكبر .وبسبب امتدادها الكمي، فإنها تؤثر هنا ليس فقط على البنية النظرية ولكن أيضا على الفائدة العملية ".practical usefulness

ولكن ليس هنا حاجة لحد الساعة لليأس من العقل .فقط أولئك الذين لا يميزن بين التنبؤ العادي والنبوءة التاريخية، أو بصيغة أخرى، فقط التاريخانيون – التاريخانيون المحبطون – هم على الأرجح ينتهون إلى مثل هذه النتائج اليائسة .إن الفائدة الأساسية للعلوم الفيزيائية لا تكمن في التنبؤ بالكسوف؛ وبالمثل، فإن الفائدة العملية للعلوم الاجتماعية لا تعتمد على سلطتها للنبوءة بالتطورات التاريخية أو السياسية .فقط التاريخاني غير النقدي، أي ذلك الذي يؤمن بالعقيدة التاريخانية لمهمة العلوم الاجتماعية على أنها شيء طبيعي، سينقاد إلى اليأس من العقل من خلال إدراك أن العلوم الاجتماعية لا يمكنها النبوءة cannot prophesy:بل إن بعضهم قد دفع في الواقع إلى كراهية العقل حتى.

ما هي مهمة العلوم الاجتماعية إذا، وكيف يمكن أن تكون ذات فائدة؟

وللإجابة على هذا السؤال، سأذكر أولا بإيجاز نظريتين ساذجتين في المجتمع يجب التخلص منهما قبل أن نتمكن من فهم وظيفة العلوم الاجتماعية.

الأولى هي نظرية أن العلوم الاجتماعية تدرس سلوك الكليات الاجتماعية social wholes ، مثل المجموعات والأمم والطبقات والمجتمعات والحضارات، وما إلى ذلك .هذه الكليات الاجتماعية تعتبر مواضيع أو كائنات تجريبية تدرسها العلوم الاجتماعية بنفس الطريقة التي تدرس بها البيولوجيا الحيوانات والنباتات.

ويجب رفض هذا الرأي باعتباره ساذجا .وهو يتسامح كليا مع حقيقة أن تلك التي تُدعى الكليات الاجتماعية هي إلى حد كبير مسلمات للنظريات الاجتماعية الشعبية بدلا من مواضيع تجريبية؛ وأنه في حين أن هناك، حقا، مثل هذه المواضيع التجريبية مثل هذا الحشد من الناس مجتمع هنا، فمن غير الصحيح تماما أن أسماء مثل" الطبقة الوسطى "قد تشير إلى أي من هاته المجموعات التجريبية .وما تشير إليه هو نوع من الكائن– أو الموضوع -المثالي ideal object الذي يعتمد وجوده على افتراضات نظرية .وبناء على ذلك، لا بد من الاستعاضة عن الاعتقاد بوجود تجريبي للكليات أو المجموعات الاجتماعية، والتي يمكن وصفها بأنها نزعة جمعية ساذجةnaïve collectivism ، بالمطالبة بأن الظواهر الاجتماعية بما فيها المجموعات collectives يجب أن يتم تحليلها باعتبار الأفراد وتصرفاتهم– سلوكياتهم -وعلاقاتهم.

ولكن هذا الطلب قد يثير بسهولة وجهة نظر خاطئة هي أخرى، وهي الثانية والأهم من بينهما للتخلص منها .ويمكن وصفها بأنها نظرية المؤامرة للمجتمع .the conspiracy theory of society وهي نظرة أن كل ما يحدث في المجتمع - بما في ذلك الأشياء التي لا يحبذها الناس مثل الحرب والبطالة والفقر والعجز - هي نتائج التصميم المباشر من جانب بعض الأفراد أو الجماعات القوية .وهذا الرأي واسع الانتشار، على الرغم من أنه ليس لدي شك، ضرب من نوع بدائي من الخرافة .وهي أقدم من التاريخانية) التي يمكن حتى أن يقال أنها مشتقة من نظرية المؤامرة(؛ وفي شكلها الحديث، هي النتيجة النموذجية للعلمانية للخرافات الدينية .فقد تلاشى الاعتقاد في آلهة هوميروس التي كانت مؤامراتها مسؤولة عن سلسلة وتقلبات vicissitudes حرب طروادة .ولكن مكان الآلهة على أوليمبوس– جبل -هوميروس قد أُخِذ الآن من قبل حكماء وقادة بني صهيون، أو من قبل المحتكرين، أو الرأسماليين، أو الإمبرياليين.

وضد نظرية المؤامرة في المجتمع لا أؤكد بالطبع أن المؤامرات لا تحدث أبدا .لكني أؤكد أمرين .أولا، أنها ليست متكررة جدا، ولا تساهم في تغيير طابع الحياة الاجتماعية .وبافتراض أن المؤامرات ستتوقف، فلا يزال يتعين علينا أن نواجه أساسا نفس المشاكل التي واجهتنا دائما .ثانيا، أؤكد أن المؤامرات نادرا ما تكون ناجحة .وتختلف النتائج المحققة اختلافا كبيرا، كقاعدة، عن النتائج التي استهدفتها) .يمكن الأخذ مثلا المؤامرة النازية(.

لماذا تختلف كثيرا النتائج التي تحققت عن طريق المؤامرة كقاعدة عامة عن النتائج التي استهدفتها؟ لأن هذا هو ما يحدث عادة في الحياة الاجتماعية، بالمؤامرة أو بغيرها .وهذه الملاحظة تعطينا فرصة لصياغة المهمة الأساسية للعلوم الاجتماعية النظرية .فهي تتبع الآثار والتبعات الاجتماعية غير المقصودة للأعمال الأفراد المقصودة .وقد أعطي مثالا بسيطا .فلو أن رجلا ما يرغب على وجه السرعة بشراء منزل في منطقة معينة، يمكننا أن نفترض مطمئنين أنه لا يرغب في رفع سعر سوق المنازل في تلك المنطقة .ولكن حقيقة أنه يظهر في السوق كمشتري سوف تتجه إلى رفع أسعار السوق .وبالمثل تكون الملاحظات بالنسبة للبائع .أو أن نأخذ مثالا من مجال مختلف تماما، فإذا قرر رجل تأمين حياته، فمن غير المرجح أن يكون لديه نية لتشجيع الآخرين على استثمار أموالهم في أسهم التأمين .لكنه سوف يفعل بالرغم من ذلك.

ونرى هنا بوضوح أن عواقب أعمالنا ليست كلها عواقب مقصودة؛ وبناء على ذلك، فإن نظرية المؤامرة في المجتمع لا يمكن أن تكون صحيحة لأنها تدعم التأكيد على أن جميع الأحداث، حتى تلك التي لا تبدو من أول نظر أنها مقصود من طرف أي شخص، بأنها النتائج المرجوة من أعمال الأشخاص الذين يرغبون في هذه النتائج.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن كارل ماركس نفسه كان من أوائل من أكد على أهمية هذه النتائج غير المقصودة للعلوم الاجتماعية .في كلمته الأكثر نضجا، يقول أننا جميعا في شباك النظام الاجتماعي .والرأسمالية ليست متآمرا شيطانيا، بل رجلا أجبرته الظروف على التصرف على الوجه الذي تصرف عليه .فهو ليس مسؤولا عن الوضع أكثر مما هو البروليتاري.

وقد تم التخلي عن وجهة نظر ماركس هذه، ربما لأسباب دعائية، ربما لأن الناس لم يفهموها – وقد حلت محلها نظرية المؤامرة الماركسية المبتذلة الشعبية Vulgar Marxist Conspiracy بشكل جد واسع .وهي متواترة أبا عن جد من ماركس إلى غوبلز Goebbels.ولكن من الواضح أن اعتماد نظرية المؤامرة بالكاد يمكن تجنبها من قبل أولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون كيفية بناء الجنة على الأرض .والتفسير الوحيد لفشلهم في استجلاب هذه الجنة هو الخبيث من الشيطان الذي لديه مصلحة في الجحيم.

إن الرأي القائل بأن مهمة العلوم النظرية لاكتشاف العواقب أو النتائج غير المقصودة لأفعالنا تجعل هذه العلوم قريبة جدا من العلوم الطبيعية التجريبية .ولا يمكن هنا أن نشير إلى التشابه بالتفصيل، ولكن يمكن ملاحظة أن كلا منهما يقودنا إلى صياغة قواعد تكنولوجية عملية تفيد ما لا يمكننا القيام به.

ويمكن التعبير عن القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أنه التنبيه التكنولوجي،" لا يمكنك بناء ماكينة بحيث هي مائة في المائة فعالة ."وهناك قاعدة مماثلة في العلوم الاجتماعية هي" :لا يمكنك، دون زيادة الإنتاجية، رفع الدخل الحقيقي للسكان العاملين " و" لا يمكنك تحقيق التوازن في الدخل الحقيقي، وفي الوقت نفسه رفع الإنتاجية ."وكمثال على فرضية واعدة في هذا المجال والتي ليست بأي حال من الأحوال مقبولة بشكل عام - أو بعبارة أخرى، هناك مشكلة لا تزال مفتوحة – وهي كالتالي" :لا يمكن أن يكون لديك سياسة تشغيل كاملة دون تضخم ."وقد تُظهر هذه الأمثلة الطريقة التي تكون فيها العلوم الاجتماعية مهمة عمليا . فهي لا تسمح لنا بإصدار نبوءات تاريخية، ولكنها قد تعطينا فكرة عما يمكن وما لا يمكن القيام به في الميدان السياسي.

لقد رأينا أن العقيدة التاريخية متعذرة ولا يمكن الدفاع عنها، ولكن هذه الحقيقة لا تقودنا إلى فقدان الثقة في العلم أو في العقل . بل على العكس من ذلك، نحن نرى الآن أنه يثير رؤية أوضح لدور العلم في الحياة الاجتماعية .ودوره العملي هو الدور المتواضع الذي يساعدنا على فهم العواقب البعيدة التي يمكن أن تترتب على الأفعال الممكنة، وبالتالي مساعدتنا على اختيار أفعالنا بأكثر حكمة.

إن استبعاد العقيدة التاريخانية يدمر الماركسية تماما وكذا ذرائعها العلمية .ولكنها لا تدمر حتى الآن المزاعم التقنية أو السياسية للماركسية، وهي أن ثورة اجتماعية وحدها فقط، أي إعادة تشكيل كلي لنظامنا الاجتماعي، يمكنها أن تهيئ ظروفا اجتماعية تناسب الأفراد كي يعيشوا فيها.

لن أناقش هنا مشكلة الأهداف الإنسانية للماركسية .لأني أجد أن هناك قدرا كبيرا جدا من هذه الأهداف يمكنني قبولها .والأمل في الحد من البؤس والعنف، وزيادة الحرية، هو أحدها، وأعتقد أنه الذي ألهم ماركس وكثير من أتباعه؛ بل هو الأمل الذي يلهم معظمنا.

ولكنني مقتنع بأن هذه الأهداف لا يمكن أن تتحقق بأساليب ثورية .بل على العكس، إنني مقتنع بأن الأساليب الثورية لا يمكن إلا أن تجعل من الأمور أسوأ - لأنها ستزيد من المعاناة التي لا داعي لها؛ ولأنها ستؤدي إلى المزيد والمزيد من العنف؛ وأن عليها أن تدمر الحرية.

ويتضح ذلك عندما ندرك أن الثورة تدمر دائما الإطار المؤسساتي والتقليدي للمجتمع .ولذلك يجب أن تُعرّض للخطر مجموعة القيم التي اضطُلع بها من أجل تحقيقها .والواقع أن مجموعة من القيم يمكن أن تكون ذات أهمية اجتماعية فقط بقدر ما يوجد تقليد اجتماعي يدعمها .وينطبق ذلك على أهداف الثورة بقدر ما هو كذلك على قيم أخرى.

ولكن إذا بدأت في إحداث ثورة في المجتمع والقضاء على تقاليده، لا يمكنك وقف هذه العملية إذا أو عندما تريد ذلك .ففي الثورة، كل شيء سيخضع للمساءلة، بما في ذلك أهداف الثوار حسنوا النوايا؛ الأهداف التي تنمو من المجتمع، والتي كانت بالضرورة جزء من المجتمع الذي تدمره الثورة.

بعض الناس يقولون إنهم لا يمانعون بأن أعظم رغبتهم في محو الذاكرة الاجتماعية تماما - لخلق عقل اجتماعي خال من أي خبرة سابقةtabula rasa ، والبدء من جديد من خلال الرسم على ذلك علامة لنظام اجتماعي جديد .ولكن لا ينبغي أن يتفاجأوا إذا وجدوا أنه بمجرد تدمير التقليد، فستختفي الحضارة مع ذلك .وسيجدون أن البشرية قد عادت إلى المكان الذي بدأت فيه آدم وحواء - أو باستخدام لغة أقل من الكتاب المقدس - بأنهم عادوا إلى عهد الوحشية.

كل ما يستطيع هؤلاء التقدميون الثوريون القيام به هو بدء العملية البطيئة للتطور البشري مرة أخرى) وهكذا تصل إلى بضعة آلاف من السنين ربما في فترة رأسمالية أخرى، الأمر الذي سيؤدي بهم إلى ثورة شاملة أخرى، تليها عودة أخرى إلى الوحشية، وهلم جرا، إلى الأبد .(وبعبارة أخرى، لا يوجد سبب دنيوي لضرورة أن يصبح المجتمع الذي تدمرت قيمته التقليدية، من تلقاء نفسه، مجتمعا أفضل) إلا إذا كنت تؤمن بالمعجزات السياسية، أو تأمل في أنه بمجرد أن تنتهي مؤامرة الرأسماليين الشيطانيين، فإن المجتمع سوف ينزع بشكل طبيعي ليصبح جميلا وصالحا.(

الماركسيون، بالطبع، لن يعترفوا بذلك .لكن الرأي الماركسي، أي الرأي القائل بأن الثورة الاجتماعية ستؤدي إلى عالم أفضل، لا يمكن فهمه إلا على الافتراضات التاريخانية للماركسية .فإذا كنت تعرف، على أساس النبوءة التاريخية، ما يجب أن تكون نتيجة الثورة الاجتماعية ، وإذا كنت تعرف أن النتيجة هي كل ما نأمل، بعدها، وبعدها فقط، يمكنك أن تنظر في الثورة بمعاناة لا توصف كوسيلة لنهاية السعادة التي لا توصف .ولكن مع استبعاد على العقيدة التاريخانية، فإن نظرية الثورة تصبح متعذرة ولا يمكن الدفاع عنها كليا.

إن الرأي القائل بأن مهمة الثورة هي تخليصنا من المؤامرة الرأسمالية، ومعه الرأي المعارض للإصلاح الاجتماعي، منتشرة على نطاق واسع؛ ولكنها متعذرة لا يمكن الدفاع عنها، حتى لو افترضنا للحظة وجود مثل هذه المؤامرة .فالثورة من شأنها أن تستبدل الحكام القدماء بآخرين جدد، ومن ذا الذي يضمن أن هؤلاء الجدد سيكونون أفضل؟ إن نظرية الثورة تتجاهل أهم جانب من جوانب الحياة الاجتماعية – هو أن ما نحتاجه ليس حكاما صالحين ومؤسسات جيدة .فحتى أفضل رجل قد تفسده السلطة . ولكن نحن في حاجة إلى المؤسسات التي تسمح للمحكومين بممارسة بعض السيطرة الفعالة على الحكام بحيث تجبر حتى الحكام السيئين على فعل ما يعتبره المحكومون في مصلحتهم .أو أن نصوغها بطريقة أخرى، فنحن نود أن يكون لدينا حكام جيدون، ولكن التجربة التاريخية تبين لنا أننا لا يحتمل أن نحصل عليهم .ولهذا السبب من الأهمية بمكان تصميم المؤسسات التي تمنع حتى الحكام السيئين من التسبب في أضرار بالغة.

وهناك نوعان فقط من المؤسسات الحكومية، تلك التي تنص على تغيير الحكومة من دون إراقة الدماء، وتلك التي لا تنص في التغيير على ذلك .ولكن إذا كانت الحكومة لا يمكن تغييرها دون إراقة الدماء، فإنه لا يمكن في معظم الحالات، إزالتها على الإطلاق .فنحن لا نحتاج إلى النزاع حول الكلمات، وحول هذه المشاكل الزائفة pseudo-problems باعتبارها المعنى الحقيقي أو الجوهري لكلمة" الديمقراطية ."لأنه يمكنك اختيار أي اسم تريد لهذين النوعين من الحكومة .أنا شخصيا أفضل أن أسمي نوع الحكومة التي يمكن إزالتها دون عنف حكومة" ديمقراطية "، والأخرى حكومة" الطغيان ."ولكن، كما قلت، هذا ليس نزاعا أو خلافا حول الكلمات، ولكن تمييزا هاما بين نوعين من المؤسسات.

وقد تم تعليم الماركسيين للتفكير على أساس الطبقات وليس باعتبار المؤسسات .إلا أن الطبقات قد ولى الآن، ليس أكثر من حكم الأمم .فالحكام دائما هم أشخاص معينين .ومهما كانت الطبقة التي كانوا ينتمون إليها، فبمجرد أن يكونوا حكاما فهم ينتمون إلى الطبقة الحاكمة.

إن الماركسيين في الوقت الحاضر لا يفكرون على أساس المؤسسات– الاجتماعيةinstitutions -؛ فقد وضعوا إيمانهم في شخصيات معينة، أو ربما في حقيقة أن بعض الأشخاص كانوا بروليتاريين يوما ما - ونتيجة لإيمانهم بأهمية حكم الطبقة الولاء الطبقي .أما العقلانيون على فعلى العكس، هم أكثر ميلا إلى الاعتماد على مؤسسات للسيطرة على الأفراد .وهذا هو الفرق الرئيسي.

ولكن ما الذي يجب على الحكام القيام به؟ معارَضة لمعظم التاريخانيين، أعتقد أن هذه المسألة أبعد ما تكون عن جادة الصواب؛ وهو ما يجب أن نناقشه .ففي حالة الديمقراطية، سيضطر الحكام للتعرض لتهديد بالخلع مقابل فعل ما يريده الرأي العام .والرأي العام شيء يمكن للجميع التأثير عليه، وخاصة الفلاسفة .في الديمقراطيات، غالبا ما أثرت أفكار الفلاسفة على التطورات المستقبلية - ولفترة زمنية معتبرة – لنكون على الوجه الأكيد .فالسياسة الاجتماعية البريطانية هي الآن سياسة بنتهام، وجون ستيوارت ميل الذي لخص هدفها بأنه" تأمين العمالة الكاملة بأجور عالية للسكان العاملين جميعا."

وأعتقد أن الفلاسفة ينبغي أن يواصلوا مناقشة الأهداف الصحيحة للسياسة الاجتماعية في ضوء تجربة الخمسين سنة الماضية . وبدلا من الاقتصار على مناقشة" طبيعة "الأخلاق، أو الخير الأسمى، وما إلى ذلك، يجب عليهم التفكير في هذه المسائل الأخلاقية والسياسية، التي هي أساسية وصعبة والتي تثيرها حقيقة أن الحرية السياسية مستحيلة دون مبدأ المساواة أمام القانون؛ وبما أن الحرية المطلقة مستحيلة، فيجب علينا، مع كانط، أن نطالب بالمساواة بدلا منها بمراعاة حدود الحرية التي هي عواقب محتمة للحياة الاجتماعية؛ ومن ناحية أخرى، فإن السعي لتحقيق المساواة، لاسيما من ناحية بعدها الاقتصادي، فبقدر ما هو مرغوب فيها في حد ذاتها، قد تصبح تهديدا للحرية.

وبالمثل، ينبغي أن ينظروا في حقيقة أن مبدأ السعادة الأكبر للنفعيين Utilitarians يمكن بسهولة أن يكون ذريعة لدكتاتورية خيّرة، والاقتراح proposal الذي يجب أن نعوضه به هو مبدأ أكثر تواضعا وأكثر واقعية - مبدأ أن مكافحة البؤس avoidable miseryينبغي أن يكون هدفا معترفا به في السياسة العامة، في حين ينبغي أن تترك زيادة السعادة أساسا للمبادرة الخاصة.

وأعتقد أن مذهب المنفعة Utilitarianism هذا الخاضع للتعديل يمكن أن يؤدي بسهولة أكثر إلى الاتفاق على الإصلاح الاجتماعي .ولأن هناك الكثير من السبل الجديدة لتحقيق السعادة هي كلام نظري، وغير واقعي، مما يجعل من الصعب تكوين رأي حول ذلك .ولكننا نعاني البؤس دوما، هنا والآن، وسوف يظل هكذا ضمن واقعنا، فنحن نعرف ذلك من الخبرة .ولذلك

فلنجعل من مهمتنا إقناع الرأي العام بالفكرة البسيطة أنه من الحكمة مكافحة الشرور الاجتماعية الأكثر إلحاحا وحقيقية واحدا بواحد، في هذا المكان هنا وفي هذا الوقت، بدلا من التضحية بأجيال من أجل خير عظيم وبعيد لا يمكن تحقيقه ربما إلى الأبد. ويبدو أن الثورة التاريخانيةhistoricist revolution ، شأنها في ذلك شأن معظم الثورات الفكرية، فهي تبدو ذات أثر خفيف على أساس البنية التوحيدية والسلطوية للفكر الأوروبي.

استبدلت ثورة المذهب الطبيعي المبكرة ضد الإله اسم' الإله 'باسم' الطبيعة .'تم تُرِك كل شيء آخر دون تغيير .وعلى ذلك الأساس تم استبدال الثيولوجيا، علم الآلهة، بعلم الطبيعة، وقوانين الإله بقوانين الطبيعة، وإرادة وقوة الإله بإرادة وقوة الطبيعة)القوى الطبيعية .(وبعد ذلك تصميم الإله ومحاكمته للبشر بالانتقاء الطبيعي .Natural Selection ثم تمّ استبدال الحتمية اللاهوتية بحتمية طبيعية؛ أي تم الاستعاضة عن علم الإله الشامل وقدرته على كل شيء بقدرة الطبيعة وشمولية العلم الطبيعي. أما هيجل وماركس آلهة الطبيعة بدورها بآلهة التاريخ، ومنه حصلنا على قوانين التاريخ .سلطة وقوى وميول وتصاميم وتخطيط التاريخ؛ والقدرة المطلقة والعلم الشامل للحتمية التاريخية .واستبدل الآثمون في حق الإله" بالمجرمين الذين يقاومون عبثا سير التاريخ ."وبأنه ليس الإله ولكن التاريخ هو الذي يحاسب.

هذا هو تصوير وتأليه التاريخ الذي أنا أحاربه.

ولكن المتتالية الله - الطبيعة - التاريخ، ومتتالية الديانات العلمانية المناظرة لا تنتهي هنا .فالاكتشاف التاريخاني بأن جميع المعايير هي في النهاية حقائق تاريخية فقط) في الإله، المعايير والحقائق هي واحدة (تؤدي إلى تأليه الحقائق - الحقائق الموجودة أو الفعلية للحياة البشرية والسلوك) بما في ذلك، أخشى أن تكون مجرد حقائق مزعومة - (وبالتالي إلى الديانات العلمانية للمذاهب الوجودية، الوضعية والسلوكية .وبما أن السلوك البشري يشمل السلوك اللفظي، فإننا مقتادون أكثر من ذلك إلى تأويل حقائق اللغة .وبذلك مناشدة لسلطة منطقية وأخلاقية لهذه الحقائق) أو الحقائق المزعومة (بحيث يبدو أنه الحكمة المطلقة للفلسفة في عصرنا.